(خارج المدينة) اذا خرجت الى ظاهر المدينة ترى الجنات الواسعة والرياض والحقول الكبيرة مزروعة كلها بنًا وموزًا وذرة بيضاء وشعيرًا وقليلًا من البقول والكرمة وبعضاً من شجيرات الليمون والپاپاي (carica papaya) ويهتم الهريون كثيرًا بزراعة الكات (catta edulis *ou* celastrus edulis) وهي شجيرة تشبه الغار البرتغالي يمضغ العرب والهريون ورقها فتفعل بهم فعل المسكر او الافيون وهذا النبات يباع باسعار غالية جدًا ويرسل منهُ الى جيبوتي وعدن وبعض سواحل شبه جزيرة العرب. اما بقية الاشجار المثمرة والمزروعات الصناعية والقمح وغير ذلك فلا يهتم الاهالي بها لا لان الارض والمناخ لا يصلحان لذلك فان بستان الرسالة الكاثوليكيَّة ممتلئ من كل انواع الفواكه والبقول الاوربيَّة بل لان الجهل مستولٍ على الاهلين فلا يعملون الَّا ما كان يعملهُ آباؤهم واجدادهم في الاعصر السالفة غير ان الآمال منعقدة على التقدم بفضل دخول الشركات الاوربيَّة التي اخذت بالاهتمام في مسائل الزراعة في بعض المقاطعات الحبشيَّة ولا بُدّ ان يتعلم منهم الهريون فينهضون قريباً من رقادهم وينفضون عنهم غبار الجهل ويتحقَّقون ان الزراعة روح البلاد في كل آن ومكان

يمين العلي

رواية تاريخية للاب س. ت اليسوعيّ

الفصل العاشر

مريم (تتمَّة الفصل)

— صلّي يا ابنتي فانَّ المسيح غدًا يستولي على قلبكِ

— زوّدني ايها الاب ببركتك

— اني اباركِ من صميم الفؤاد باسم الربّ فادي الانام

هو الخطاب كان جاريًا على عتبة بيتٍ حقير موقعهُ في بعض احياء الفعلة في بيروت بين شيخٍ وقور وفتاة في مقتبل العمر كانت تصحبها امرأة مسنَّة

وكان الذي ينظر الى العجوز لا يشكّ في انَّها من صعاليك القوم وفقرائهم او

بالحري من إمانهم وعبيدهم . امَّا الفتاة فكان حسنُ منظرها ورشاقة قدّها ورزانتها في حركاتها تدلُّ على شريف اصلها وطيب ادومتها

ولكن تُرى ما معنى وقار تلك الآنسة وتذلُّلها امام شيخ وضيع الاصل وما سبب ذاك التعطُّف والحنوّ الذي اظهرهُ لها الشيخ اذ باركها وتبعها بالنظر حتى توارت عن عيانهِ من جهة حيّ اليهود ؟

وكأني بالقارئ قد سبق وعرف تلك الفتاة ودعاها باسمها يهوديت ابنة صموئيل اليهوديّ المثري الشهير في بيروت ولعلَّهُ عرف ايضاً العجوز التي كانت تصحبها انَّها أمتها الامينة دوروتيا

وان سألت عن الشيخ الجليل الذي وقفت يهوديت بحضرتهِ اجبتُكَ انهُ كوارتوس اوَّل اسقف تولَّى في بيروت رعاية النصارى

*

كان بطرس الصفا ثلاثين سنة قبل ذلك العهد نزل من اورشليم وهو يطلب انطاكية ولمَّا كانت طريقهُ على بيروت لم يشأ ان يجتاز هذه المدينة الشهيرة دون ان يزرع فيها بذر الخلاص ويبشِّر اهلها بالانجيل . فرمى فيها شبكتهُ وهو صيَّاد الرجال كما قال عنهُ المسيح فاجاب الى دعوتهِ نفرٌ قليلون كانوا كالخميرة في تلك الحاضرة بين قوم لم يكن همُّهم سوى احراز الغنى وارتشاف كاس الملذّات

ولمَّا حان وقت رحيل الرسول الى انطاكية اختار بين تلامذتهِ رجلًا ذا فطنةٍ وغيرة يدعى كوارتوس وكل اليهِ امر المتنصّرين وجعلهُ اسقفاً اوَّل على بيروت ليبثَّ فيها الدين . فلبَّى كوارتوس امر هامة الرسل واختار لسكناهُ حانوتًا صغيرًا باعهُ من بعض العملة واتَّخذهُ معملًا للحياكة وهي المهنة التي كان يزاولها . فما لبث القوم ان رأوا اجتهادهُ وحسن شغلهِ فصاروا يتواردون اليهِ ويفضلون انسجتهُ على غيرهِ وكانوا يلقون من لطفهِ ورقَّة طباعهِ ما يأسرهم بحبهِ

وكان كوارتوس مع مثابرتهِ على شغل الحياكة يقابل جميع الزائرين بوجه بشوش ويتحفَّى بالسؤال عن احوالهم ويساعدهم بمشورتهِ بل بعملهِ ان امكنهُ . وكان اذا وجد بينهم بائسًا اقرَّ منهُ تحسَّن عليهِ بمالهِ . فكانت العامَّة تنتاب اليهِ ولاسيَّما اليهود الذين وجدوا فيهِ مثال الفضائل الموصوفة في اسفار موسى وكتب الانبياء على انَّهم كانوا

يتعجّبون منهُ ومن اعتزالهِ عن قومهم في الصلاة. وبقي كوارتوس على هذه الحالة بينهم ردحاً من الدهر حتى اذا كان يوماً في حلقةٍ من اصحابهِ المتردّدين عليهِ قال لهُ احدهم وكان من باعة السمك وهو يهوديّ النحلة :

اراكَ رجلًا ذا دين ومع هذا لم نعاينك قطّ في كنيسنا

قال هذا فاردف حمّال فينيقيّ كان هناك : « وكذلك نحن لم نرَكَ يا كوارتوس في معابد آلهتنا السوريّين »

فما ألقيا هذا السؤال حتى اصغى الكل الى الحائك كوارتوس واعاروهُ انّهم ليروا ما هي افكارهُ من جهة الدين

امّا كوارتوس الذي كان يجيب عادةً على اسئلة زائريهِ دون ان يكفّ عن الشغل فانّهُ اسكت هذه الدفعة « مكُّوكَهُ » ورفع رجلهُ عن « دوّاستهِ » وقام عن سداهُ فجلس في بهرة القوم وكانوا قد ازدحموا حولهُ لعلّهم يسمعون من فيهِ شيئاً جديداً . ثمّ أطرق ساعة الى الارض كانهُ يصلّي الى الله في قلبهِ ورفع راسهُ الى الرهط المتجمّع حولهُ قائلًا :

« لا تتعجّبوا من حيادتي عن كنيس اليهود وعن هياكل الاصنام لأنّ معبودي هو السيّد الاله يسوع المسيح »

قال كوارتوس هذه الكلمات بصوت جهور وبرزانة عجيبة. لكنّهُ ما كاد ينتهي منها حتى قام ثلاثة او اربعة من اليهود الحضور وخرجوا يهزّون برؤوسهم ويلعنون معبود كوارتوس لانّهم كانوا أشربوا بغضهُ منذ حداثتهم

امّا الباقون فانّهم مع ما اصابهم من الانذهال لم يُجيروا جواباً ولما طُبعوا عليهِ من السذاجة وحسن الطويّة احبّوا ان يعرفوا ما يقولهُ كوارتوس في معبودهِ

فواصل الحيّاك كلامهُ بعد ان توارى الخارجون عن العيان واخذ يقصُّ على سامعيهِ خبر يسوع الناصريّ مباشرةً من مولدهِ العجيب الى موتهِ وقيامتهِ. وكان على قدر ما يخوض في مجال الكلام يزيد صوتهُ قوّةً ويتّسم وجههُ بسمة العزّ والوقار فيخال للحضور انّهم يسمعون ملاكاً لا بشراً. وكان قولهُ يحوك في صدرهم ويفعل فيهم فعل الماء الزُّلال في الناهل العطشان يُروي حرّتهُ ويشفي حرقتهُ

وكان ممّا اثّر فيهم ما رواهُ كوارتوس عن مسيحهِ انّهُ عاش ثلاثين سنة مثلهم في

الضَّعة وشغل الايدي والأتعاب الشاقَّة فنهج لهم بمثلهِ طريق الخلاص وطوَّب الفقراء والمساكين والحزانى والباكين دون الاغنياء والمنهمكين في اللذَّات . فخرجوا من امام كوارتوس وقلوبهم مأسورة بحبِّ الهِ جواد احبَّ نفوسهم حبًّا لا يوصف ادَّى بهِ الى ان يموت فداء عنهم

وكانت هـذه اوَّل كرازة كوارتوس بالمسيح الرب فلم تذهب كلمتهُ سدًى بل وقعت في تربةٍ طيِّبة واتت بعد قليل يزرع جيِّد نما وزكا في قلوب اهل بيروت وخصوصاً في قلوب الوضعاء والمساكين

على انَّ الجحيم لم يكن ليرضى بخراب ملكهِ دون ان يقاوم انصـار الحقّ ودُعاة الدين فثارت على المتنصرين في بيروت الثوائر الجمَّة وناصبهم كهنة الاصنام وكان اشدّ الناس عداوة عليهم اليهود اذ يرونهم يعظّمون ذاك الذي صلبهُ زعماؤهم وكبار احبارهم ومن ثم كانوا يدسون لهم الدسائس ويحرّكون عليهم الضغائن بل رفعوا امرهم الى عُمَّال الرومانيين ليحاكموهم كاعداء المملكة ويقضوا عليهم بالموت او بالنفي . لكنَّ الرومان بعد الفحص والتنقير لم يجدوا لشكايات اليهود سندًا فتركوهم وشأنهم يعبدون معبودهم المصلوب كما يعبد الفينيقيون تمُّوز وعشتاروت او كما يكرّم اليونـان المشتري والمريخ . امَّا تعليمهم الدينيّ فلم يجدوه اسوأ من تعليم غيرهم بل رأوا انَّهم يكرّمون القيصر ويعطون ما لله لله

*

فهكذا مرَّت على كوارتوس ثلثون سنة وهو يجاهد في سبيل الحقّ متقلّباً في السرَّاء والضرَّاء تارةً تساعدهُ الرياح فيجري بسفينتهِ الى الامـام وتارةً يساور مركبهُ تيَّارُ البحر فيكاد يحطّمهُ الَّا انَّ الله امدَّهُ بمعونتهِ وذلَّل لهُ المصـاعب حتى بلغ عدد قطيعهِ في اليوم الذي نحن بصددهِ الفي نفسٍ اكثرهم من السوقة ومن العملة

وقد شاء الله ان يعزّي في هذا النهار قلب هذا الراعي الغيور بان ساق اليهِ احدى بنات اسرائيل ليرشدها الى طريق الخلاص فتكون كباكورة قومها الذين لم يستطع كورتوس حتى ذاك اليوم ان يلين صلابة قلوبهم وينير عقولهم بنبراس الايمان

ومن ثم لمَّا رأى الاسقف اوَّل مرَّة يهوديت داخلةً الى منزلهِ الحقير مع أمتهـا دوروتيا رحَّب بهما واظهر للفتاة الشريفة من الانس والحنـان ما افرخ روعها وسكَّن

جأشها . ثم اجلسها بقربهِ ولمَّا تحقَّق برغبتها في التنصُّر اخذ يوضح لها حقيقة النصرانيَّة وما ورد في اسفار العهد العتيق من النبوَّات عن المسيح وحياتهِ وموتهِ وبطلان سنَّة موسى بشريعتهِ الفُضلى

وكانت يهوديت تسمع كلام كوارتوس لا يفوتها منهُ حرفٌ الَّا انَّهـا كانت سبقتهُ ودرست من قبل دخولها عليهِ تاريخ النصرانيَّة وراجعت الاناجيل المقدَّسة وقابلت بين نصوصها وآيات التوراة واحاطت بدين المسيح علمًا . ولمَّا سألها كوارتوس اتؤمن بالعقائد التي فسَّرها لها رأى من حكمتها وصواب عقلها وسعة فهمها ما لم يجد في من نصَّرهم قبلها

لكنَّهُ خاف من ان تضعف امام الشدائد وتخور عزيمتها اذا ما عرف ابناء جلدتها بخروجها عن دين آبائها . وعليهِ اخذ الاسقف يبيّن لها انَّ المؤمن لا بُدَّ لهُ من الصبر على المحن والبلايا وانَّ ايمانهُ يضطرُّهُ على مقاساة الآلام حتى اذا اقتضى الامر ذلك يهرق بطيب القلب دمهُ في سبيل دينهِ كما فعل اسطفانوس الشهيـد ويعقوب اخو الربّ ويعقوب بن زبدى وكلُّهم آثروا الموت على الكفر وذهبوا ضحايا بُغض اخوتهم اليهود لدين المسيح

بيد انَّ يهوديت كانت مستعدَّة لكل الاوجاع بل للموت نفسهِ اذا ما دعاها الله يومًا الى الاستشهاد فاكتفت بان تقول لكوارتوس عند وصفهِ الشدائد المعـدَّة للمتنصرين : « انَّ المحبة اقوى من الموت » تريد انَّ محبة الله قد استولت على قلبها فلا تخاف العذابات بل لا تهاب الموت نفسهُ لحفظ وديعة الايمان

فلمَّا رأى كوارتوس شدَّة نفسها وقوَّة عزمها لم يرَ داعيًا لتأجيل عمادها فبشَّرها بذلك وعيَّن لها يومًا تعدّ نفسها لقبول هذه النعمة الالهيَّة والمنَّة السموِيَّة وزوَّدها ببركتهِ كما رأينا فخرجت وأمتها وقلبهما يطفح سرورًا (ستأتي البقيَّة)